منهج البحث التاريخي وتطوره عند العرب والأوربيين في العصر الحديث (دراسة مقارنة)

أ. د. بشرى محمود صالح/قسم الدراسات التاريخية
مركز المستنصرية للدراسات العربية والدولية
الجامعة المستنصرية / العراق
Dr. bushra.m.saalgmail.com

مستخلص:

ساهم التدوين التاريخي في قراءة العديد من التجارب البشرية، وذلك من خلال التوغل في ثناياه وتدبير خلفياتها واستنباط المؤثرات للمساهمة في إيجادها هدف أخذ العبرة والتعرف عن قرب عن أبرز حوادثه وفهم الأسس السيكولوجية لكثير من الأحداث والصراعات المتعلقة بتاريخ البشرية. وكان لمؤرخي العصر الوسيط تجربة فريدة من نوعها في الكتابة التاريخية معتمدين على العديد من الروايات التي كانت تصل إليهم. نهدف من خلال هذه الدراسة تقديم رؤية شاملة لمسيرة التدوين التاريخي منذ بدايته الأولى وتتبع حركة تطوره، ومعرفة الدوافع التي ساهمت في انتشار حركة التدوين، وأهم الكتب وكذلك أبرز المؤلفين الذين ساهموا في تدوينه ومن خلال العرض والتمحيص توصلنا الى نتيجة مفادها أن هذه الدراسة ساهمت في وضع الأسس التي اعتمدت عليها المدارس التاريخية ذات المنهجية الخاصة بها.

الكلمات المفتاحية: التاريخ، الكتابة، التدوين.

Historical research method and its development among Arabs and Europeans in the modern era (a comparative study)

Mr. Dr. Bushra Mahmoud Al-Zubaie
Al-Mustansiriya Center for Arab Studies
Al-Mustansiriya University/Iraq
dr.bushra m.sa@yahoo.com

Abstract :

Historical blogging has contributed to reading many human experiences, by delving into its folds, contemplating its backgrounds, and deducing influences to contribute to its creation with the aim of taking a lesson, learning closely about its most prominent incidents, and understanding the psychological foundations of many events and conflicts related to human history. The historians of the Middle Ages had a unique experience in historical writing, relying on many of the narratives that came to them. Through this study, it aims to provide a comprehensive vision of the historical process of blogging since its beginnings, trace its development, and know the motives that contributed to the spread of the blogging movement, the most important books, as well as the most prominent authors who contributed to its blogging. Through presentation and examination, we arrive at the conclusion that this study contributed to establishing The foundations upon which historical schools relied on their own methodology.

Ker words: history, writing, blogging .

هدف الدراسة:

نهدف من خلال هذه الدراسة تقديم نظرة شاملة للتدوين التاريخي منذ بداياته الأولى وتتبع حركة تطوره، ومعرفة الدوافع التي ساهمت في انتشار حركة التدوين والكشف عن الجوانب التي ساهمت في التدوين والكشف عن الجوانب المهمة في حركة الكتابة والتدوين التاريخي خلال تلك المرحلة.

إشكالية البحث:

هذه الدراسة هي محاولة جادة للإجابة عن الإشكالية التالية: كيف ظهرت الكتابة والتدوين التاريخي وفيما تتمثل مراحل تطورها.

منهجية البحث:

الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي.

أهمية الدراسة:

أن للتدوين التاريخي أهمية بالغة فلولاً للتدوين التاريخي لن يكون لنا القدرة على فهم ومعرفة المعلومات المتعلقة حول التاريخ القديم وفي وقتنا الحالي يوجد هناك العديد من الدول المختلفة التي تهتم بتسجيل مختلف الوسائل التي يمكن من خلالها معرفة تاريخ الأمم السابقة. إلى أن جاء الإسلام فكان هذا مدعاة لتدوين التاريخ من بداية الهجرة النبوية. فأصبح الإسلام بمرور الوقت هو المحور الرئيسي في العملية التاريخية.

المقدمة:

يعد منهج البحث التاريخي عند العرب المسلمين والأوربيين وتطويره منهجياً من الموضوعات المهمة وذات التفرعات المتعددة والتي تمثل مع غيرها وضع التاريخ والذي لا بد له أن يساير تطور العصر وإلا انتهى أمره. لذلك وجب العودة إلى الخلف ليتسنى لنا فهم الحاضر لا بد من العودة إلى الماضي ودراسته

خاصة تاريخنا الإسلامي. للوقوف على المتغيرات والخصائص لدراسة جوانب الموضوع وأهم السمات التي تميزت بها هذه المراحل مقارنة مع ما حدث من تطور في الدراسات الأوربية ومدى تأثير كلاهما بالآخر. ولا شك أن موضوع كهذا لا يستطيع الباحث أن يقف على كل تفاصيله وجزئياته رغم أهميتها ولكن الهدف من هذه الدراسة هو تسليط الضوء على الخطوط العامة والرئيسية من كل مرحلة واستخلاص أهم ما تميزت به دون الخوض في جزئيات التطور ذاته.

لقد قسم البحث إلى مبحثين رئيسيين:

المبحث الأول: سمات الدراسات التاريخية عند العرب والمسلمين حاولنا فيه تسليط الضوء إلى تاريخ ما قبل الإسلام ثم أهم التطورات والتغيرات الجذرية التي أحدثها الإسلام في التاريخ وأحداثه ومن ثم التطرق إلى أهم الدراسات والجوانب الإيجابية والسلبية فيها. وفي نهاية المبحث حاولنا الوقوف على أهم السمات الأساسية للمنهج التاريخي عند العرب حتى ظهور نظرية أين خلدون وبدايات العصر الحديث.

المبحث الثاني: الدراسات الأوربية والمتعلقة بالتاريخ منذ بداية نشأة الدويلات الأوربية إلى بداية عصر النهضة حيث سنحاول التطرق إلى أهم المراحل التي مرت بها الدراسات التاريخية وتم تقسيمها إلى أربع مراحل هي المرحلة البدائية ثم العصرين الأغريقي والروماني وعصر ظهور المسيحية منها القديم والحديث والعصور الوسطى ثم عصر النهضة، وقد حاولنا في هذا المتعين الوقوف على أهم الظروف التي مرت بها دراسة التاريخ وأهم السمات والخصائص.

وكانت عبارة عن قصص خرافية وأساطير تخلو من الصيغة التاريخية وهذه الأخبار كانت بعيدة عن الصحة وهذا ما عبر عنه ابن خلدون بقوله ((بعيدة عن الصحة عريقة في الوهم والغلط وأشبه بأحاديث القصص الموضوعية، وهي لذلك لا يمكن الوقوف بها أو الاعتماد عليها لما تتضمنه من مبالغات وخرافات))⁽²⁾.

كما ظهر لنا في التدوين ما يسمى بالأنساب إلا أننا من الصعب جعلها في ضمن مصادر التدريب التاريخي الدمشقي، وهكذا نستطيع القول أن الدراسات التاريخية لم تبلور في عصر ما قبل الإسلام، ويمكن أن تعتبر هذا العصر بمثابة مرحلة تمهيدية لتطور هذه الدراسات فيما بعد عندما انتقد مؤرخوا صدر الإسلام هذا العصر ومادته⁽³⁾.

وعندما جاء الإسلام أحدث تغييرات جذرية في البنى الأساسية للحياة آنذاك على كل الأصعدة منها الدينية والاجتماعية والاقتصادية وبذلك نال التاريخ حصة من التغيير وذلك نتيجة للعديد من العوامل التي ساعدت بدورها على تطور التاريخ في العصر الإسلامي:

أولاً: أن الإسلام كدين وما يتميز من خصائص فهو بحد ذاته يحمل فكرة إنسانية وتاريخية عميقة لكونه خاتم الأديان السماوية، كذلك يعتبر ظهور الرسول الكريم محمد بن عبد الله ﷺ خاتم الأنبياء وحد فاصل في مسيرة التاريخ، وهذا بحد ذاته أدى أن يضع التقويم وتدوين التاريخ بهجرة الرسول الكريم ﷺ من جهة وتأكيد أهمية ظهور الإسلام⁽⁴⁾.

(2) شاکر مصطفی، التاريخ العربي والمؤرخون، دراسة في تطور علم التاريخ، دار العلم، بيروت، 1979، ص 53.

(3) المصدر نفسه، ص 54.

(4) عبد العزيز الدوري نشأة الكتابة العربية، بيروت،

1960، ص 59.

المبحث الأول

سمات الدراسات التاريخية

عند العرب والمسلمين

أن التاريخ بمعناه الحديث لم يكن قد تبلور بصورة جلية في مرحلة التاريخ العربي قبل الإسلام والتي تبدأ في القرن الخامس الميلادي إذ يرى الكثير من المؤرخين أن هذه المرحلة قد بدأت منذ القرن الخامس الميلادي. أما قبل هذه المرحلة فإنها كانت بدائية في كتابة التاريخ في أوروبا. وهنا لا بد أن نشير أن العرب قد اهتموا بالتاريخ عندما تنبهوا إلى منزلة وفائدة التدوين إذ كان التاريخ عند العرب يمثل وحدة متكاملة ومتراصة ومراحل متداخلة ومكاملة لبعض⁽¹⁾.

أما مرحلة ما قبل القرن الخامس الميلادي. وهي مرحلة قريبة من عهد الإسلام فهي لم تكن بعيدة عن التاريخ وكان لكل مجموعة من العرب حريفة وسمة في تدوين التاريخ الذي يخصهم بعضه مدون والآخر منقوش وبعضه شفهي مثل عرب اليمن وملوك حمير، وكان لعرب الحجاز والمناذرة أخبارهم وأنسابهم، كذلك لدى العرب في الشام لديهم نقوشهم المعروفة والمقرونة.

أما المادة التاريخية في الجاهلية نوعان قصص دينية وروايات جماعية تحمل أسم الأيام، كانت مادتها النزاع القبلي منها التاريخ البدوي للقبائل وكانت هذه القصص لها جذور تاريخية لها صلة بالتاريخ بمعناه الدقيق ممزوج بين الأسطورة الواقعة التاريخية، لذلك يفسر لنا وصول الأخبار العربية في الجاهلية الأولى مشوهة من خلال المدونات التي سجلها مؤرخوا العصر الأموي

(1) جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 1، بغداد،

1950، ص 24.

أخذاً علمياً وكان لهم منح خاص، ومع منتصف القرن الثاني وبداية القرن الثالث اكتمل بيان الإسناد وكان الخبر التاريخي يتألف بالإضافة الى السند وهو المتن ويقصد به نص الخبر وبذلك أصبح الإسناد سمة واضحة من سمات مناهج العرب المسلمين في مجال الدين والتاريخ. ويعتمد الخبر على مصادر رواية الخبر من المصادر الشفهية والمصادر المكتوبة⁽²⁾.

أما بالنسبة الى المصادر الشفهية فهي تعتمد على الاستماع للشهود المباشرين للحدث أي شهود العيان أو عملية حفظ المعلومات عن طريق الذاكرة ثم نقلها الى الغير، أما بالنسبة الى العلماء المحدثين في التاريخ الأوربي لا يقرون الرواة الشفوية ويشكون في المعرفة النقلية وفي مكانة الذاكرة في التاريخ، أما بالنسبة للرواية الإسلامية فإنه لا ينطبق عليها مثل هذه الأحكام لأن منبع المسلمين في رواية الخبر يقوم على الملاحظة المباشرة لأنه يعتمد أصلاً على الرواية الحسية للمصدر الأصلي للخبر أو المحادثة قبل أن تصبح خيراً، إضافة الى أنه يعتمد أيضاً على التجربة حيث تتم عملية اختيار صدق الراوي⁽³⁾.

أما المصادر المكتوبة فقد رافقها عملية حفظ المعلومات بالتسجيل الكتابي للأشخاص وهذه ظهرت منذ عهد الرسالة، ولكن العلماء المسلمين لم يثقوا كثيراً في المصادر المكتوبة وأخضعوها للمراجعة والتدقيق على أصول من السماع بسبب الأخطاء التي تنجم عن النقط والشكل ومن هذا المنطلق كانت الرواية المكتوبة تحتل عند العرب المسلمين درجة أدنى من الرواية الشفهية، إذ أن الراوي عند المسلمين تخضع لشروط معينة ومحددة منها الإسلام

ثانياً: خروج المجتمع العربي من الإطار القبلي والوثني بعد ظهور الإسلام وثائرة تأثيراً واضحاً في البنية الثقافية لهم فأصبحوا مرتبطين بسلسلة التاريخ الوجداني للبشرية بدلاً من اهتمامهم بالأنساب والقصص، فغطت العقيدة الإسلامية تصوراً واضحاً للكون منذ الخلق الى يوم القيامة. يعتبر الخبر هو جوهر وأساس المادة التاريخية عند العرب سواء في مرحلة ما قبل الإسلام أو بعده ولكن في عصر الإسلام قد تغير المفهوم حيث أطلق علماء المسلمون على تسمية النقد التاريخي الذين وصفوه لنقد المعرفة التاريخية وتوثيقها بمنهج نقد الخبر وبذلك فقط قسموه الى عدة أقسام:

1. خبر ديني: وهو الخبر الذي يعنى بجوهر العقيدة والإيمان والشريعة ويكون مصدره النبي ﷺ أو أحد صحابته.
2. خير تاريخي: وهو يعنى بأحداث ماضية حدثت قبل الإسلام أو بعده وهذه الأحداث منها يتصل بالتنبؤات والعقائد والشرائع الإسلامية وغير الإسلامية وما يتصل بالفتوحات وأحداث الدولة الإسلامية وأخبارها.
3. خبر أدبي: وهو الخبر الذي يعنى بالمادة الأدبية واللغوية⁽¹⁾.

ولقد اعتمد العرب في جمع معلوماتهم التاريخية على الرواة التي نشأت في بداية الأمر نشأة بسيطة ومتواضعة، إلا انها تطورت بتطور الزمن وأصبحت متخصصة في مجال الدين والأدب والتاريخ وكان هناك رواة وظيفتهم حفظ أخبار القبيلة وإنسابها، ولقد كان للصحابة دور في تدوين الكثير من الأخبار والأحداث إذ كان الصحابة يمثلون دور الرواة بالنسبة للرسول الكريم، حيث كانوا يأخذون عنه

(2) عبد العزيز الدوري، المصدر السابق، ص 62.

(3) شاکر مصطفى، المصدر السابق، ص 56.

(1) شاکر مصطفى، المصدر السابق، ص 57.

وأحدث تطويراً في أسلوب ومفهوم الكتابة في هذا العصر⁽²⁾.

كما تطورت الكتابة من حيث الطريقة والأسلوب فبعد أن كان التاريخ يجمع على شكل جمل قصيرة أصبح أسلوبها بعد ذلك سلسلاً بسيطاً يمتاز بالوضوح وخالي من التعقيد وكثيراً ما استعمل السجع في الكتابة التاريخية ومن المؤرخين الذين استعملوا السجع في كتاباتهم التاريخية هو أبو النصر العتبي صاحب كتاب اليميني، والمؤرخ الشهير ابن عربشاه، صاحب كتاب ((فاكهة الخلفاء وفاكهة الظرفاء (وكتاب) عجائب الأمور في نوائب تيمور)).

وظهر بعد ذلك منهج تاريخي يعتمد على أسلوب الكتابة حسب الموضوعات حيث برز لنا ما يسمى (بالمنهج التاريخي) يعتمد على الأشخاص أو الحكام والذي اعتبر التاريخ لأشخاصهم تاريخياً للدول التي حكموها ومن هنا بدء تاريخ الدول المرتبط بتاريخ حكامها، وقد ظهر هذا المنهج عندما أخذ عدد من المؤرخين ترتيب السنين واعتماده كمنهج في كتابة وتدوين الأحداث التاريخية وفهم اليعقوبي الذي اعتبر التاريخ هو أشخاص الحكام والولاية على مدار السنين⁽³⁾.

وقد اتبع المسعودي هذا النهج في كتابة التاريخ، ونجد أن ابن الأثير يحاول كتابة التاريخ حسب الموضوعات لا حسب السنين ولا الأيام ويعتبر هو أول من نبه إلى عيوب طريقة كتابة التاريخ بالاعتماد على السنين لأنها تقطع أوصال الحادثة الواحدة. وفي سياق هذا الحديث يطرح السؤال التالي: هل أن ابن خلدون قد طور المنهج التاريخي وقدم

والصدق والقدرة على التمييز والعدالة⁽¹⁾.

كما أنهم اشترطوا في المروي أن يكون ذا مصدر شفوي لا مكتوب، وأن لا يروي عن مصدر مكتوب إلا بشروط معنية أهمها أن يكون الراوي حافظاً لما في الكتاب وأن يراجع كتابه على أصول صحيحة من السماع، وخلاصة القول أنهم وضعوا شروطاً دقيقة صادمة أهمها أن يكون الراوي أميناً وثقة أميناً في نقل الأحداث.

وتعتبر هذه المرحلة وهي مرحلة التدوين التاريخي عند العرب أحد العلوم المهمة ومرحلة انتقالية فنلاحظ أن الكتابات في تلك المرحلة تركز على السيرة النبوية والأنساب والتراجم لرجال العلم والفقه والحديث، وقد خضع هذا التدوين إلى منهج معين اعتمده المسلمون في توثيق رواية الخبر الذي يخضع للملاحظة والتجربة واختيار صدق الراوي مع التأكيد على التحليل والاهتمام بدرجة المصادر العديدة للرواية، ثم تطور التاريخ وأصبح يدون على الأساس الزمني وجمع المواضيع المتعاقبة على التوالي في كتاب واحد إذ استندت إلى في التدوين إلى أمرين أساسيين:

1- وحدة التاريخ الإسلامي وأهمية تجارب الأمة الإسلامية وتاريخ البشرية من خلال سلسلة الانبياء إذ امتدت هذه المرحلة إلى نهاية القرن الثالث، إذ اتسعت دائرة التدوين التاريخي في كافة المجالات والتي بدورهم استفاد منها المؤرخين، ومع بداية القرن الرابع الهجري بدأ الاهتمام يقل بالنسبة للاسناد وبدأت مرحلة جديدة تمثلت في الانتقال إلى الكتابة مثل الطبري صاحب أكبر موسوعة في تاريخ العرب والإسلام والذي بدوره

(2) شاکر مصطفى، المصدر السابق، ص 75.

(3) شاکر مصطفى، المصدر السابق، ص 91.

(1) عثمان موافي، منهج النقد التاريخي عند المسلمين، مؤسسة الثقافة الجامعية، مصر، ص 28.

أفكاره ومنهجه في أوروبا ومنذ أكثر من قرن وقد تأثر الغرب بأرائه واستفادوا منها وبلا شك تعتبر خير معين لنا في هذا المجال إذا أردنا أن نخلق لأنفسنا مدرسة عربية لها طابعها الخاص في مجال البحث التاريخي⁽²⁾.

المبحث الثاني

الدراسات التاريخية في أوروبا منذ بدايتها حتى عصر النهضة

في أوروبا لم تتبلور الدراسات التاريخية بمعناها الدقيق وبصورة واضحة خلال العصور ما قبل التاريخ والتي كانت بسيطة وبدائية تمثلت في نسخ القصص والأساطير التي تدور حول المعتقدات الدينية، وهذا النوع لا نستطيع أن نطلق عليه أسم الدراسات التاريخية ولكن نستطيع تمثيلها بأنها مرحلة تمهيدية لظهور ونمو الدراسات التاريخية، ومع تطور الحضارة وازدهارها أخذ التاريخ بشكل أساس جوهري في تسجيل الأحداث وأصبح بمثابة السجل الذي بدون الأحداث والتواريخ.

وتعتبر حضارة المصريين وحضارة البابليين والآشوريين هما أقدم ما وصل إلينا من هذه الحضارات والتواريخ هي عبارة عن حكايات عن العناية الإلهية من أبطال الشعوب القديمة، ففي القرن الثالث ظهرت لنا العديد من المؤلفات منها حولية ما ينشون Maneethon المصري وتاريخ بابل لبيروسوس Berossus وتاريخ الملوك وإسرائيل ويهوذا، فالأول وضع المؤلف باللغة اليونانية واعتمد على مصادر بابلية، فكانت هذه الكتب تهدف الى توعية الناس وإرشادهم الى الأعمال الصالحة ودعوتهم الى التحلي بالأخلاق والدفاع عن

براهين ضمن إطار الفلسفة ونقصد هنا ضمن إطار النظام الفلسفي للمفكرين العرب أمثال أفلاطون وأرسطو. وللإجابة عن هذا السؤال نقول: أن ابن خلدون قد وضع قواعد وضوابط للرواية فطلب من المؤرخين أن يطبقوا على السند ما كان يطبق على الحديث من التعديل والتجريح مبيناً أن الكذب لصيق بالخبر بطبيعته ونراه يقوم بمناقشة الخرافات التي نقلها بعض مؤرخي العرب على أنها حقائق ولم يحكموا فيها عقلاً ولا واقعاً. فترى أنه ينتقد المسعودي نقداً لاذعاً على عدم ثقته فيما يتعلق لطائفة من الأخبار والروايات التي وصفها ابن خلدون بأنها جزء من الخرافات المستحيلة. لذلك هو يرى بضرورة الوصول الى رواية صادقة لتحقيق المصادقية بالاستناد الى الأدلة والبراهين ويرى أن الخبر عموماً لا يجب أن ينقل لمجرد أنه خبر الا إذا كانت له أهمية للأجيال القادمة فالتاريخ وأن يتكلم عن أحداث سابقة من الماضي إلا أنه يعيش في الحاضر المتطور ويتطلع الى مستقبل أفضل⁽¹⁾.

كما أولى عناية واهتمام خاص بالوثيقة كمستند ورقي فالتاريخ يضع من الوثائق التي تبحث عن أفعال وأفكار من سبقونا فهي المادة الخام والمنبع المباشر الذي نستلهم منه الأحداث كما أرى أهمية خاصة بدراسة الآثار التي تعتبر من العلوم المهمة والمساعدة في الدراسات التاريخية الى يومنا هذا. وخلاصة القول أن ابن خلدون ما قدمه الى التاريخ يعتبر مدرسة في هذا المجال لازالت تدرس

(1) Halplen (J) Introduction a Lhistoire (P.U. F) 1927, P.17.

لمزيد من التعليمات :

Longlais : Introduction aux etudes historique, Hac-ette 1987.

(2) المسعودي، مروج الذهب، ج1، ص145.

دراسة النتائج التي توخاها من عمله والقدر الذي استطاع تحقيقه من هدفه الكلي فإننا لا ينبغي من التاريخ سوى تمارين أدبية لا غيره فيها⁽³⁾.
ومن خلال كلامه نستطيع أن نستنتج أن التقدم والتطور الفعلي للدراسات أو المنهج التاريخي لهذا العصر الذي بدأ آنذاك لدراسة الأحداث هو موضوع البحث الذي يشكل الإنسان بذاته هو دراسة كلمة على أسس واضحة يتفق مع أسلوب المنهج الحديث القائم على دراسة الأسباب والأهداف ثم دراسة النتائج بعد ذلك وخير دليل على تقدم أسلوب الكتابة في تلك المرحلة هو ظهور نمط جديد من الكتابة هو أسلوب النقد الذي يعتبر المؤرخ هكتايوس أول من حاول نقد الروايات التاريخية. عندما كتب في القرن السادس عن شكله في أصل الروايات الأغريقية مشيراً إلى أن الشعب اليوناني مؤكداً في كتاباته إلى أن ((من أصل الشعب اليوناني وأساطيره ما هو إلا خرافة))⁽⁴⁾.
أما العصر الروماني فكانت له سماته الخاصة به والواضحة حيث ساعدت رقعة روما السياسية المتسعة المؤرخين من أن يجمعوا شؤون العالم ويربطوا مصيره بمصير دولتهم، فخلقوا نوع جديد من الأدب التاريخي الهليني والمتمثل في التاريخ المحلي فتلاحظ أن هناك تباين واضح بين المؤرخين الرومان والمؤرخين الإغريق فالرومان بطبيعتهم ماديون تغلب عليهم النزعة التفصيية، أما المؤرخين الرومان كان محور كتاباتهم الرئيس هو روما ذاتها وكان الرومان يفخرون بماضي وطنهم، في حين أن

(3) عبد الغني محمد، منهج البحث التاريخي عند العرب والمسلمين، دار الفكر، القاهرة، 1978، ص-113
114.

(4) الطبري، تاريخ، الرسل والملوك، تحقيق: دي غونيه، لندن، ص 1882.

عدالة الإله⁽¹⁾.
وخلاصة القول أن هذه المرحلة قد مهدت الطريق لظهور دراسات تاريخية من مصادر متعددة سواء كانت شفوية أو منقوشة أو عبارات تداولتها الأجيال، وبعدها جاءت مرحلة العصرين الإغريقي والروماني التي تميزت بتطوير الدراسات التاريخية وبداية ظهور الأسلوب العلمي والذي ارتبطه بدورة في تطور هاتين الحضارتين وخير دليل هو ما نراه في تطور الكتابة الأغريقية في أسلوب ملحمي وهما الملحمتان (الألياذة) و (الأوديسا) للشاعر هوميروس التي ظهرت في القرن التاسع.
وأول المؤرخين الإغريق الذين أسهموا في تطوير المنهج التاريخي هكتايوس Hectuens الذي ولد في (546) قبل الميلاد ثم جاء بعده المؤرخ هيرودوث الهيكرناس ولقبه (أبي التاريخ) وما تركه من مؤلفات وعددها (9) نستطيع أن نستنتج أسلوب الكتابة في العصر الإغريقي الذي يستمد مادته في الإنسان فيتناول في كتاباته الحادث التاريخي⁽²⁾.
ثم يأتي بعد ذلك هيرودوث ثيوسيديد -Thuey dides من مؤرخي الأغريق الذي تميزت كتاباته الأسلوب الخطابي على عكس المؤرخ الروماني الذي يعتبر من مؤرخي الجمهورية الرومانية وهو (بوليبوس) الذي كان في كتاباته أقل ميلاً للأسلوب الخطابي وأشد عناية بتفسير الحاضر حسب مقولته ((على الكاتب أن يوجه اهتمامه إلى الظروف التي سبقت الحادث أو واكبته أو جاءت بعده لأن دلالة هذه جميعاً تفوق ما يروى عن الحادثة نفسها ... نحن إذا استزغنا من التاريخ البحث عن الأسباب والأساليب والأهداف التي حركت الإنسان وأغفلنا
(1) السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخين العرب، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص 43-45.
(2) عبد العزيز الدوري، المصدر السابق، ص 69.

والحكم والأمثال، وتحول التاريخ الى رجال الدين، أما في العصور الوسطى، فقد استمر الأسلوب ذاته في كتابة التاريخ وذلك يعود الى استمرار هيمنة الكنيسة ورجال الدين واعتمد مؤرخوا هذا العصر على المصادر التقليدية فاستمدوا منها معلوماتهم إلا أنهم لم يحللوا المصادر أو ينتقدوها بصورة عملية، لذلك لم يكن المنهج العلمي لكتابة التاريخ قد تبلور بعد ولم يحدث أي تحديد علمياً فتميز بالجمود واعتقدوا أن كتابة التاريخ تمشي بمشيئة إلهية وهي التي تتحكم بالأحداث، ومن هنا نلاحظ أن الذي يميز الكتابة في ذلك العصر هو انعدام أي مجال للتفكير أو النقد أو التحليل وركزت الدراسات على دراسة خصائص الذات الإلهية المقدسة⁽²⁾.

وفي نهاية العصور الوسطى حدث بعض التطور في مجال الدراسات التاريخية وذلك بسبب التأثيرات الخارجية الناتجة عن احتكاك المسيحية بتيارات الحضارات والثقافات الأخرى وأولها هي الحضارة الإسلامية، وكان أولى الاحتكاك هو في الأراضي المقدسة، وصقلية، وجنوبي إيطاليا، والأندلس، أضف الى ذلك الاتصال البخاري بالشرق الأقصى، إذ بدء مؤرخوا هذا العصر بتوجيه كتابة التاريخ توجيهاً جديداً حيث عاد الناس الى تقييم هذا التاريخ بوصفه دراسة تستند الى أسلوب علمي رصين⁽³⁾.

وأول عمل قام به مؤرخوا ذلك العصر هو تنقية المادة التاريخية من الشوائب التي علق بها في العصور الوسطى وتحليل النتائج على أسس علمية تعتمد على النقد والتحليل مثل لورنزو فلا -Loran zo Valla (1406 - 1457) والذي بدوره أكد على

المؤرخين الرومان كانوا أقل اهتماماً لمسألة العزل من الأساتذة اليونانيين المتأثرين بالفلسفة الى حد بعيد.

ومن الجدير بالذكر هنا أن المؤرخين الرومان كانوا قليلي العدد وحتى الذين خرجوا في هذا المجال ظهروا في فترات زمنية متأخرة مثل كاتوا Cato (242-227م) الذي نشر كتابه (الأصول) ثم جاء بعده يوليوس قيصر (الحرب الغالبة) الذي كان عبارة عن سيرة شخصية لمؤلفة ثم جاء المؤرخ تاكيوس tacitus ويعتبر من أشهر المؤرخين والكتاب الرومان على الإطلاق من حيث اللغة والأسلوب عاشه للمدة (55 - 117م)⁽¹⁾.

ومما ذكر أعلاه نلاحظ مدى التأثير الهيليني على الدراسات التاريخية الرومانية إذ شكلت المدرستين الأخرقية والرومانية نموذجاً جديداً لهذه الدراسات فهم كانوا مؤمنين بوجود قوة إلهية مقدسة.

أما العصر المسيحي القديم والعصور الوسطى الأوربية فيتميز العصر بهيمنة الكنيسة على الشؤون السياسية والدينية في أوربا منذ بداية القرن الرابع حتى نهاية العصور الوسطى، حيث بدأ عصر تأخر وانحطاط شمل بطبيعة الحال الدراسات التاريخية حيث زعزت الدراسات الرومانية والإغريقية ليحل محلها ثقافة دينية متمزنة أرجعت الإنسان الأوربي الى عصور ما قبل هذه الثقافات وبالتالي تركت آثارها على الدراسات التاريخية فظهر بنمطه المسيحي مؤكداً مع سيطرة الإله وأن قوته توجه الناس فيما يصنعون من أحداث، وبذلك أصبح التاريخ خاضع للاهوت مشحوناً بالخرافة وأخبار الكوارث والخوارق والكرامات، والمآثرة الوحيدة لهذا العصر هو أنه خلف ثروة هائلة من القصص

(2) المصدر نفسه، ص 118.

(3) المصدر نفسه، ص 120.

(1) عبد الغني محمد، المصدر السابق، ص 114.

3. أخضاع المادة التاريخية الى التحليل والشك.
4. تركيز الكتابات التاريخية حول مفهوم الدولة ذاتها وذلك لكونها المحور الرئيسي الذي يجب أن تدور حوله الأحداث⁽³⁾.

وهنا لا بد من القول أن لحركة الإصلاح الديني والحروب الدينية منها وأشهرها الحروب الصليبية وأصبح التاريخ مرجع للناس يستمدون منه الأدلة والأحداث والبراهين. وهذا دعى الى بحث الناس عن الأدلة وما يسمى (بالبحث التاريخي) خاصة المجالات التي حدث بين لوثر والبابا وبين الكاثوليك والبروتستانت وظهرت العديد من المؤلفات وبالرغم من ذلك الى أن التاريخ وداسته استمرت كفرع ثانوي قليل الأهمية حتى منتصف القرن الثامن عشر إذ بدأ التأريخ يتحول تدريجياً الى علم وليس الى سجل للحروب وهذا ما نلاحظه في المؤلف الشهير (أصول علم جديد) لمؤلفه جيوفاني باتسيستا فيكو عام Giovanni Battsta Vico في 1725 إذ اعتبر التاريخ رسالة جامعة وفرعاً من علم واسع شاكل لكل ما يحيط بالأمة الإنسانية في العالم وأكد على أن منهج لجنة يقوم على أصول منطقية دقيقة مؤكداً على أن كل عصر من عصوره له مكانة خاصة قائم على التطور، وقد حقق الهدف مونتسكيو Montesquieu تحقيق هذا الهدف إذ أكد في مؤلفاته على كتابة التاريخ القائم على التحري والتحليل والدقة. في سرد الأحداث وتقييمها⁽⁴⁾.

ويعتبر فولتير Voltaire (1694 - 1778) ومعاصرة هيوم مدرسة جديدة في كتابة التاريخ مثلاً لحركة الاستنارة التي عرضت في القرن الثامن عشر والتي طبق فيها الثقافة العلمانية في كل الميادين

(3) المصدر نفسه، ص 18.

(4) محمد عواد، صناعة التاريخ، الكويت، 1974،

ص 127 - 128.

أن منحة قسطنطين وهو من الأسس التي قامت عليها سلطة البابوات إنما هو تزوير قبيح أفتعل في روما نفسها لتحقيق مصالح رجال الدين وتأكيدهم⁽¹⁾.

كما عثر الإيطاليون من علماء النهضة في النصوص القديمة للترجمة اليونانية والخاصة للعهد الجديد تبين لهم أن هناك تحريف رديء لعقائد المسيح والرسل وهذا دليل على بروز نمط جديد من الكتابة يستند الى الشك والتحري عن المعلومة الصحيحة⁽²⁾.

ومن أمثال هؤلاء ليونارد بروني Leonard Bruni (1369 - 1444) ويعتبر كتابة (تاريخ فلورنسه) الذي يقع في (12) جزء هو أول مؤلف مهم يحتوي على كل الخصائص البارزة للمدرسة الحديثة ثم يأتي بعده بودجو بركشوليني Poggio Bracciolini (1380 - 1495) وفلافيوس بلندوس (1388 - 1463) ويعتبر من أعظم علماء النهضة له مؤلفات عديدة من آثار الرومان.

وبذلك نستطيع أن نحدد المميزات الخاصة بالدراسات التاريخية في هذه المرحلة:

1. تقييم الدراسات التاريخية وجعلها دراسة اجتماعية تستند الى أسلوب علمي واعتماد هذه الدراسات على الذات الإنسانية.
2. ربط التاريخ بالعلوم الأخرى.

(1) مع بداية القرن الخامس عشر انتقلت الى رجال القانون مهمة رجال الدين في مجال الدراسات التاريخية فادخل هؤلاء في كتاباتهم الصيغى القانونية فكان ذلك سبباً في ظهور الزيف لاعتمادهم على العقود الصكوك والوصايا التي زعموا انها صدرت عن الامبراطورية قسطنطينية الصالح البابا. انظر: محمد عواد، ص 129.

(2) اندريه إيمار، روما وامبراطورتها، ترجمة: يوسف سعد، بيروت، 1964، ص 14.

ديفيد هيوم David Hume الفيلسوف الشهير الذي ألف كتاباً في ستة مجلدات عن تاريخ انكلترا وآدم سميث Adam Smith (1722 - 1890).

ومما يؤخذ على مؤرخي عصر الاستنارة هو عدم الاهتمام بتطوير الإنسان وبالتالي تطور المجتمعات ولم يأخذوا ينظر الاعتبار تطور الإنسان من الناحية الاجتماعية والعواطف والمتغيرات النفسية والعقلية للإنسان وعدم دفع التاريخ إلى مرتبة العلوم واصبحوا المؤرخين أقرب إلى الاخلاقيين منهم إلى العلماء والمؤرخين المحترمين.

وكان هذا مدعاة إلى التغيير وهذا ما حدث بالفعل في القرنين التاسع عشر والقرن العشرين⁽³⁾.

الخلاصة:

بدأ أول تدوين في تاريخ الإنسانية عندما بدء الإنسان بتدوين شؤون الحياة المختلفة ومنها أحداث الماضي منذ أول ظهور للحياة المختلفة ومنها أحداث الماضي منذ أن ظهرت أولاً حضاري وادي الرافدين ووادي النيل فبدأت تظهر المدونات التاريخية لأحداث الماضي والمعاصرة في مرحلة مبكرة من هاتين الحضارتين.

ومن خلال تلك المدونات نجد بروز المفهوم العلمي الحديث للتاريخ بطرق النقد الحديث والتمحيص إلى غير ذلك من قواعد منهج البحث التاريخي الحديث الذي توطدت قواعده وأصوله وأسسها منذ منتصف القرن الماضي فقد اهتم سكان لطرق على وجه الخصوص بأحداث الماضي وتدوينها معتمدين على مصطلح الحس التاريخي والمقصود به هنا (التاريخ الشفهي) ويعتبر هذا التدوين الحسي من أهم العناصر الحضارية في تراث

الإنسانية والتفكير وهي في الواقع كانت ثورة على الدين الذي يقيد النشاط الإنساني. إذ استقرت كتابة التاريخ في عصر الاستنارة على قواعد وأصول فنية وعلمية خرجت به من مجال الأدب والفلسفة إلى التاريخ العلمي حين كتب دوشن Duchesne تاريخاً ضخماً للكنيسة الكاثوليكية تجري فيه الدقة والصدق والموضوعية في التحليل حيث انتقد البابوات قيم سلوكهم السيء موضعاً زيف بعض الرهبان وفي هذه المرحلة ظهر لنا الكاتب والمؤرخ أدوارد جيبون Edward Gibbon (1737 - 1794) التي تميز أسلوبه بالبساطة وعدم التعصب للمسيحية ورجال الدين ويعتبر كتابة (تاريخ اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها) عمل جيد ويعتبر أول دراسة تاريخية لدولة كبرى تناول جوانبها كافة مذكراً في المؤلف أسباب ضعفها وسقوط الدولة الرومانية وانحطاطها⁽¹⁾.

وأخذت هذه النزعة العلمية تنتقل إلى فرنسا وأخذ الاهتمام باللغات يزداد وأصبحت الوثائق هي المحور الرئيسي في كتابة التاريخ فظهرت لنا كتابات ديكارت الذي أصبح منهجه بعد ذلك قاعدة لهؤلاء الباحثين واصبح الشك هو الأساس العام للدراسة والسبيل الوحيد للوصول إلى المعرفة فأصبح المؤرخ يهتم بالوثائق والأحداث وأصبح يناقش ذلك ويعرض نتيجة عمله في أسلوب أدبي⁽²⁾.

كذلك من أهم سمات عصر الاستنارة هو زيادة إنتاج المؤلفات التاريخية وظهرت لنا مؤلفات بإجزاء عديدة على سبيل المثال لا الحصر مؤلف

(1) Famaroli (m) : Lage de Leloquence nce rhetorique de La renaissance au sevilde lepoque classique, Geneva, P.31.

(2) اندريه إيبار، المصدر السابق، ص 132.

(3) المصدر نفسه، ص 134.

وادي الرافدين.

لقد مر التدوين التاريخي بعدة مراحل استطعنا من خلال البحث أن نستحضر ثلاث مراحل كل مرحلة مرتبطة بأخرى ويرجع الفضل في الحصول على المادة التاريخية الى عصرين العصر الجاهلي والعصر الإسلامي بالنسبة للعرب أما في أوروبا فقد استقصوا مادتهم التاريخية من المسيحية واليهودية نقلها الرهبان ومن الجدير بالذكر أن أصل التدوين آنذاك كان يعتمد بالدرجة الأساس للسامعين التي كانت بطبيعة الحال كان ينقصها الاستمرارية ودراسة الأسباب والنتائج التاريخية إضافة الى أنها لم تضع الزمن في الحسبان.

أما في أوروبا كانت الموضوعية في المرحلة المتقدمة من تدوين التاريخ هي القاسم المشترك لتدوين الحوادث التاريخية رافقها الوضوح والابتعاد من صيغ المبالغة والتكلف وبالتالي أعطت شأنًا وأهمية للعصر خاصة في عصر النهضة فظهر العديد من المفكرين، ولقد أبدى العديد من الرهبان اهتماماً بدراسة التاريخ وتدوين حوادثه على أسس علمية وموضوعية يختلف عن التدوين الذي سبق ومنها برز هؤلاء الرهبان الراهب (يوخنا بولاند) الذي تأسست باسمه جمعية للدراسات التاريخية التي لا تزال قائمة حتى الآن وتصرف باسم جمعية (البولاندين).